عبد السلام المسدِّي
قارئا لمنهج تأليف الجاحظ

أ/ بومنقاش نبيلة
جامعة سطيف

ملخص:

ترصد هذه الدراسة أهم المرتكزات التي تستند عليها قراءة المسدِّي لمنهج تأليف الجاحظ، ومناقشة آلياتها الإجرائية و منطلقاتها المعرفية في مساءلة مختلف ظواهر التأليف المنهجي عند الجاحظ أهمها: التكرار، الاستطراد، المزج بين الجد والهزل... ذلك ما يسمح بإعادة بناء / مراجعة حدود الوعي المنهجي عند الجاحظ من جهة، وتقديم ومضات قرائية في مشروع نقد النقد من جهة ثانية.

حظيت منهجية تأليف الجاحظ بدراسات عديدة منها تلك التي أوردها المسدِّي بعنوان: "البيان والتبيين" بين منهج التأليف ومقاييس* الأسلوب"، ثم يتبع هذا العنوان الرئيسي بآخر فرعي هو:"أسس تقييم

جديد" ولا يخفى على أحد أنَّ «"العنونة" جزءٌ لا يتجزأ من استراتيجية الكتابة لدى النّاصِّ لاصطياد القارئ وإشراكه في لعبة القراءة، وكذلك بعدٌ من أبعاد استراتيجية القراءة لدى المتلقي في محاولة فهم النصّ وتفسيره وتأويله، ومن هنا الحاجة الملحة لتحوز "العنونة" موقعا لها في خريطة النظرية الأدبية المعاصرة، فهي لا تضجُّ إشكالاتها وأسئلتها أمام عتبات القراءة النقدية»[1]. ويتضح جليًا أنَّ الناقد –ومن خلال عنوانه السابق– يبرم عقدًا معرفيّا مع القارئ العربي يعِدُه من خلاله بإقامة تصوُّرات جديدة قادرة على كسر مجموعة من الاعتقادات الثابتة في ذهنه،

خصوصا ما تعلق منها بمنهجية التأليف عند الجاحظ –والتي قيل حولها الكثير– والتأسيس في المقابل لنسق قرائي جديد يستند إلى المزيد من الموضوعية والدِّقة .

يؤكد المسدِّي أيضا أنَّ مضمون كتاب "البيان والتبيين" يستدعي الانتباه إلى أمور أساسية، أبرزها انَّه عبارة عن نسيج مزدوج من منتقيات عربية إسلامية تتخلَّلها تعليقات واستطرادات شخصية، وهكذا ينطلق الجاحظ من خصوصية متنوعة أدبية، دينية، شعرية، نثرية، ويحاول من خلالها إقامة نظرية في البلاغة. ولئن عرِّف هذا الكتاب بأنَّه مؤلف بلاغي هام، فإنَّ شهرته في الأدب لا تقل شأنا عن ذلك إذ لا يشكك قديم أو محدث في شرعية المنزلة الجاحظية في بلورة مفهوم "الأدب"، ويبرر المسدِّي مقوِّمات هذه المنزلة المطلقة التي يحظى بها "البيان والتبيين" بأن هذا الأخير حدَّد مفهوم الأدب بمنهجه قبل كلِّ شيء حتى أصبح نموذج العرب في منهج التأليف استطراداً وتحرراً من قيود وحدة المواضيع، والهدف المنشود من كلِّ ذلك ليس "الأخذ من كلِّ شيء بطرف" بل تقديم شتات الأطراف من كلِّ الأشياء تقديما مزيجاً خليطاً قد يظهر للقارئ المعاصر ضربا من"الفوضى"، وبحكم انتشار هذا المنهج التأليفي اقتنع معظم النقَّاد القدامى والمحدثين بأن ذلك المسلك في التأليف هو أسٌّ من أسس الأدب العربي[2].

وبعد هذه المقدمات التمهيدية التي آثر المسدِّي الانطلاق منها قصد استقرائها يؤسس هذا الناقد الشق الأول من إشكاليتة القرائية لكتاب "البيان والتبيين"حول البحث في قصدية الفوضى وتعددية المواضيع في المنهج التأليفي عند الجاحظ. هذه الفكرة التي سلّم بها نفرٌ من العلماء القدامى

والمحدثين**، وأقرُّوا من خلالها بأنَّ الجاحظ قصد ذلك المسلك التأليفي قصداً[3].

ونظرا لانتشار هذه المواقف يوضِّح المسدِّي رؤيته منها قائلا: «وهذا التقدير على وجه التحديد هو الذي يتراءى لنا نوعا من التفسير التوفيقي اللاحق بعد الحدث، فنحن ما إن نتجاوز الأحكام الخارجية التي سنَّها القدماء وغير القدماء حتى نقتنع بأنَّ النَّقد الباطنيَّ للكتاب يُفضي بنا إلى الجزم بعفوية تلك الظاهرة، بل لعلَّه يسمح لنا بأن نزعم أنّ الجاحظ لو استطاع أن يصنِّف كتابه تصنيفاً أكثر إحكاما لما تردَّد في ذلك، وأنَّنا لا نكاد نشك أنَّه قد حمل على ذلك المسلك وهو راغب عنه»[4].

يصرح المسدِّي بالمنهج الذي سيستعين به في تناول مسألة التأليف عند الجاحظ وهو"منهج النقد الداخلي/الباطني"، الذي يتجاوز تلك الأحكام الخارجية الجاهزة التي تعارف عليها النقَّاد منذ سالف العصور وعدوها من الثوابت التي لا يرقى إليها الشك، رغم إعاقتها مشروع قراءة التراث النقدي، هذا ما جعل جابر عصفور يزداد اقتناعاً بأنَّه لا توجد هناك قراءة بريئة أو محايدة للتراث إذ أنَّ قراءة التراث –وللأسف– ظلت تنطلق من مواقف ورؤى فكرية محددة، ومسبقة –لا سبيل إلى تجاهلها– جعلتنا نفتش في التراث عن عناصر للقيمة الموجبة أو السالبة بالمعنى الذي يتحدد به الإطار المرجعي للمواقف الفكرية التي ننطلق منها أساسا[5].

وقبل أن يباشر المسدِّي مسعاه الرامي إلى إماطة اللِّثام عن منهجية التأليف عند الجاحظ وكسر تلك الأفكار التي نسجت حولها، أبى إلاَّ أن ينصف الجاحظ منهجيا –في مستهل قراءته– وذلك من خلال استقرائه لملامح الوعي المنهجي عنده وتتجلى في تقسيمه لمادة الكتاب إلى أجزاء

مقصودة الفواصل، ثم إلى أبواب صريحة الحدود. كما وضع لجلِّ الفصول عناوين تتسم بالتجريد والشمول هذا ما بوَّأها منزلة المحرِّك الدلالي لكل المادة التي تحملها.مثال ذلك باب البيان الذي يضم "باب القول في المعاني الظاهرة باللفظ الموجز"***، كما يؤكد المسدِّي أيضا وعي الجاحظ بدقائق الأبواب التي يعتزم طرقها قبل أن يصل إليها[6].

إذا كان المسدِّي يلخص حديثه عن قضية تصنيف مادة "البيان والتبيين" وتبويبها في ما أطلق عليه بالمنهج العقلاني عند الجاحظ، فإنَّ في رؤيته تلك إهمال لمرجعيات أخرى ساهمت بطريقة أو بأخرى في صياغة ذلك المنحنى التصنيفي عند الجاحظ، حيث أنَّ منهج الجاحظ إضافة إلى خصوصيته العقلانية يتميز أيضا بأنَّه «مذهب تعليمي يسعى إلى نشر البلاغة وتعليمها عند الخاصة والعامة، وإلى حثِّ المسلمين خاصة على تعاطيها والإقبال عليها لأن الشعوبية كانت تسعى إلى تخويفهم منها وتحريضهم على تركها»[7]. وقد فرض هذا المنحنى التعليمي –الذي تجلَّى في كتاب "البيان والتبيين"– على الجاحظ إلزامية الوعي بقضية التصنيف ودوافعها نظرا لقدرتها على نشر علم البلاغة بين صفوف القرَّاء رغم تعدد أصنافهم ومشاربهم الفكرية.

انطلاقا مما تم ذكره يُمكن تصنيف قراءة المسدِّي هذه من خلال المقاصد التي سبق وأن صرَّح بها –وهي كسر تلك القناعات الثابتة المتعلقة بمنهجية التأليف عن الجاحظ– ضمن خطاب التحقيق وهو: «"فعل" لا يؤرخ للنقد ولا ينظِّر له، وإنَّما هو فعل "تحقيق" هدفه الوصول إلى "فهم" يُغاير كلَّ فهم سابق للموضوعات والنصوص النقدية، مستعينا في ذلك بآليات التحقيق المعروفة، وبهذا يتميَّز عن غيره بخاصية تجعله أكثر تمثيلاً لنقد النقد، ألا وهي البعد الابستيمولوجي.... والتساؤل عن

وضع الموضوع بغية إعطاء صورة أخرى له، صورة لا يُنتجها التأويل، ولكن تُنتجها عمليات الفحص والتحليل والمقارنة والتنظيم وإعادة التركيب، بحيث يتحقق منطق هذا الخطاب بصفته عملية انتقال من وصف وضع إلى إظهار ما ينبغي أن يظهر، أو من صورة مألوفة إلى صورة جديدة غير مألوفة. فهو خطاب اكتشاف أو استقراء، أو مصطلح أكثر حداثة: خطاب قراءة»[8]

وبعد أن استقرأ المسدِّي بعض ملامح وعي الجاحظ بضرورة إحكام المنهج، لم يتوان عن تقديم موقفه منها إذ يقول: «غير أنَّ لهذا الوعي حدوداً تجعله إلى الإدراك الغامض أقرب منه إلى الإحكام التَّفصيليّ،فذاك الجاحظ نفسه– وقد رأيناه يستنكف من أن يورد في "البيان والتبيين" خبراً ذكره في كتاب "الحيوان" بأنَّ السبب في ذلك إنَّما هو اجتناب التكرار– نراه في كلِّ كتابه لا يكاد يجاوز بضع الصفحات حتى يكررّ خبرا أو حديثا أو شعرا وحتى النوادر والملح مما إذا تكرر فقد سمته المميَّزة وغايته المنشودة، وإذا رجعنا إلى بعض مواطن التكرار وفحصنا المسافات الفاصلة بينها من حيث المجال الدلالي العام للأثر كدنا نجزم أنَّه تكرار "لاإرادي"»[9].

انطلاقا من هذا الموقف يباشر المسدِّي مهمة التنقيب عن مظاهر ضعف التحكم المنهجي لدى الجاحظ والتي يوجزها في عدَّة قضايا أهمها: التكرار، تباعد ما حقه التعاقب المباشر، الاستطراد... موضحاً إيَّاها بشواهد تمثيلية ثم يتوصل إلى ما يشبه فرضية البحث وهي: أن بروز تلك الظواهر التأليفية السابقة في مؤلفات الجاحظ له مرجعيته العميقة وهي استعصاء منهجية التأليف على الجاحظ. وهو لا يتوانى عن الإقرار –في بعض المواطن– بقصوره عن استيعاب حدٍّ من التجريد يبوئ التأليف

المنهج العقلاني الذي يرتضيه نظريا[10]. ومما يؤكد فكرة المسدِّي هذه قول الجاحظ «كان التَّدبير في أسماء الخطباء وحالاتهم وأوصافهم أن نذكر أسماء أهل الجاهلية على مراتبهم وأسماء أهل الإسلام على منازلهم، ونجعل لكلِّ قبيلة منهم خطباء، ونقسم أمورهم باباً على حدته، ونقدِّم من قدَّمه الله ورسوله عليه السلام في النسب وفضَّله في الحسب، ولكنِّي لما عجزت عن نظمه وتنضيده تكلفت ذكرهم في الجملة والله المستعان وبه التوفيق ولا حول ولا قوّة إلاَّ به»[11].

يفسر المسدِّي تطرق الجاحظ –في مؤلفاته المختلفة– إلى منهجيته في التأليف بأنَّه محاولة لإيهام القارئ بأنَّ تلك الظواهر المنهجية مقصودة لذاتها، وهو في حقيقة الأمر في مقام من غلبت عليه الظاهرة. ولم يتوقف الأمر عند هذا وحسب، بل يؤكد المسدِّي أيضا أنَّ لجوء الجاحظ إلى أسلوب المراوحة بين الجدِّ والهزل لم يكن مجرد تنويع في المداخل ولكنَّه في حقيقة الأمر هو تقنية تواري بها من أعوزته حيلة إحكام الصنعة، فراح يتظاهر بأنَّ القضية مقصودة لذاتها وركَّبها بضرب من الصنعة حتى صيَّرها أحبولة فكريةً، ولا غرابة –حسب المسدِّي– في مواقف الجاحظ هذه لأنَّه من رؤوس العقلانية ديناً ومذهباً[12].

ولئن اتخذ المسدِّي الخلفية الفكرية للجاحظ وتوجهه الاعتزالي ذريعة للتأكيد على براعته في اعتماد أسلوب المراوغة والخداع ،فإنَّ المسألة يمكن أن تقرأ من زاوية أخرى إذ يؤكد عبد الله الغذامي أنَّ الجاحظ لمَّا لاحظ أنَّ المتن قد تشكل وجرى فرزه سعى إلى تشكيل الهامش وفرزه أيضاً،فكان له أن ميَّز الأعراب وأخرجهم ثقافيا وعرقيا بأن جعلهم مادة خارج إطار الجدِّ والمتن، وأصبح بذلك الأعراب وغيرهم من الأقوام كالنساء والبرصان والجواري مادة للتظرف والتندر[13]. ويصرح الغذامي

بموقفه من اتخاذ تلك الأقوام وسيلة للتسلية والهزل قائلا: «وهذه كلُّها عناوين تدل على الهامش، وفي الوقت ذاته فإنَّها تدل –بما أنَّها من مؤلفات الجاحظ– على اهتمام خاص من الجاحظ بالمهمش والمنسيِّ، وهذا ما يستوجب منَّا وقفة تأمل لكون خطاب الجاحظ يقف كمثال وحيد يوضِّح لنا العلاقة بين المتن والهامش، ويوضح لنا أساليب الهامش في تعامله مع المتن، وسنتخذ من ذلك دلائل لنا في تفهُّم وسائل المعارضة الثقافية في مواجهة المتن ومقاومة محاولة تهميشها وإسكاتها»[14]، وبهذا فإن كتاب "البيان والتبيين" يمثِّل نموذجا لتعايش نسقين ثقافيين «يتجاوران في حال من الصراع المكبوت بين المتن والهامش،بين الثقافة المؤسساتية المهيمنة والثقافة الشعبية المقموعة»[15]. ولهذا ستظل تلك الظواهر التي تجمع بين الجدِّ والهزل مجالا واسعا لتأويل كيفية اشتغال ثنائية المركز / الهامش.

يواصل المسدِّي إثبات موقفه السابق إزاء منهجية التأليف عند الجاحظ بمجموعة من الشواهد منها قول الجاحظ: «قد ذكرنا –أكرمك الله– في صدر هذا الكتاب من الجزء الأوّل وفي بعض الجزء الثاني كلاما من كلام العقلاء البلغاء، ومذاهب من مذاهب الحكماء والعلماء، وقد روينا نوادر من كلام الصبيان والمحرّمين من الأعراب، ونوادر كثيرة من كلام المجانين وأهل المرَّة من الموسوسين، ومن كلام أهل الغفلة من النوُكي، وأصحاب التَّكلُّف (...) فجعلنا بعضها في باب الاتِّعاظ والاعتبار، وبعضها في باب الهزل والفكاهة، ولكلِّ جنس من هذا موضع يصلح له، ولا بدَّ لمن استكدَّه الجدّ من الاستراحة إلى بعض الهزل»[16].

ويدرج المسدِّي قول الجاحظ هذا وغيره من الأقوال في خانة الخداع والمراوغة والتلاعب لعدَّة اعتبارات أهمها بالنسبة للقول السابق أنَّه ليس في السياق ما يقوم اعتراضا عليه في شأنه، بل وليس فيه ما يكون له سبباً

أو مسبباً، وإنَّما هو مجرد إقحام لا يسلم من الإحالة. كما لا يستبعد أن يتضاعف حجم المراوغة لتصير بذلك خدعة مزدوجة تحتاج إلى قدر كبير من التبصُّر حتى تكشف عن نفسها بنفسها، ومحرِّكها الفعلي أنَّه لو كان الذي أسَّسه الجاحظ من المراوحة في المضمون والسرد منهجاً قائماً بذاته، لما اقتصر على حجم كميٍّ دون آخر، ولما جاء فريضة من فرائض المطوَّلات دون ما قصر من أسفار التدوين[17].

وتوصل المسدِّي بذلك إلى نتيجة عامة مفادها «أنَّ المراوحة بين غرض وآخر، ضمن تعاقب الهزل على الجدِّ، إنَّما هي اقتضاء لضرورة تعذّر على المصنِّف الإفلات من ناموسها وهو يتعامل مع مادة تراكمت وتلاحقت، يجري وراءها فتطارد فكره، وتشذُّ عن قبضته، فيتلاشى المنهج المراد، ويحلُّ محلَّه توارد يصطنع له لبوس المنهج وما هو بمنهج»[18].

غالبا ما فسَّر النقاد ظاهرتي الاستطراد، والمزج بين الجدِّ والهزل عند الجاحظ على أنَّها دلائل تثبت ضعف تحكمه المنهجي، إلاَّ أنَّ القضية قد تحمل مقاصد خفية تتجاوز مراوغة القارئ العادي إلى التحايل على الخطاب الرسمي، ذلك أنَّ الجاحظ وإن كان يتظاهر أمام ذلك الخطاب بأنَّ الأمر لا يتجاوز حدود لعبة أسلوبية هدفها الإمتاع والتسلية، ثم العودة بعدها إلى الجدِّ،فإنَّه يوظف الإمتاع وسيلة للرفض والتعرية النقدية في صيغة ساخرة ومخاتلة، ويمرر من خلالها الجاحظ معارضته للنسق المهيمن مقوِّضاً إيَّاه عبر لعبة السخرية، هذه الأخيرة التي تمكنه من العبث بالنسق دون ملاحظة من الرقيب الثقافي المؤسساتي[19].

ويؤكد عبد الله الغذامي أن الجاحظ يستطرد «كي يطرد المتن،بوصف ذلك أحد أساليب المعارضة المخاتلة، وتبدأ اللعبة –أولا– بواسطة الانحراف بالكلام عن وجهته وتوجيهه نحو انعطافات ذهنية وثقافية مختلفة ومخالفة للمتن. ثم ينعطف الكلام مرة أخرى نحو وجهة ثانية تتولَّد عن الأولى. وفي هاتين الحركتين يرتحل الخطاب بعيداً عن المتن، وهو ابتعاد ذهنيٌّ وثقافي يفضي حقيقة إلى إلغاء الأصل والسخرية منه ويؤدي إلى إحلال قيم ثقافية بديلة ومنافسة»[20].

باعتبار أنَّ موضوع هذا البحث يندرج ضمن مجرى "نقد النقد" فإن وصف مواقف المسدِّي ورؤاه في هذه القضية لا يجدي نفعاً، ما لم يتبع بتقييم عام للمنهج القرائي عند هذا الناقد من خلال استظهار آليّاته، وإبراز مدى نجاعتها في استنطاق النص الجاحظي والتأسيس لأفق قرائي مستحدث وموضوعي.

إن تتبع مستويات التمظهر القرائي عند عبد السلام المسدِّي في هذا الشطر الأول من دراسته لكتاب "البيان والتبيين" والمنصب حول "منهجية التأليف عند الجاحظ"، يؤكد استناده إلى آلية الوصف والاستقراء لجزئيات الظاهرة، قصد التوصل إلى نتائج تثبت صحة الفرضية التي انطلق منها الناقد، والتي يؤكد من خلالها على أنَّ بروز ملامح الفوضى المنهجية بكلِّ مستوياتها في كتاب "البيان والتبيين" هو مجرد ظاهرة عفوية، ولا مجال للاقتناع أو التأكيد على قصديتها كما فعل النقَّاد السابقون، ويلخِّص المسدِّي تلك الآليات في منهجه الذي أسماه: منهج النقد الداخلي أو الباطني، ولا ضير في التذكير بأنَّ أصول هذه القراءة تعود إلى بحث قدَّمه الناقد في قسم الدراسات الأدبية من مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية التابع للجامعة التونسية سنة 1974 بعنوان

"المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي من خلال "البيان والتبيين"[21]. بمعنى أنَّ هذا البحث أنجز ونشر في ظرف زمني أقلُّ ما عُرف عنه أنَّه يمثل العصر الذهبي لانتشار مقولات المناهج النقدية النصّانية في وطننا العربي، لذا لم تكن هذه المداخلة التي قدّمها المسدِّي شاذة عن بنات عصرها بل حرص أشدَّ الحرص على بناء دعائمها وفق رؤية منهجية تنطلق من داخل النص متجاوزة تلك الأحكام الخارجية الجاهزة والمتوارثة عبر سالف العصور والأزمنة. وما يمكن الإشارة إليه هو أنَّ المسدِّي في منهجه القرائي هذا وإن استفاد من معطيات المناهج النقدية النصّانية، فإنَّه وفيٌّ أيضاً في بعض بنوده لعلم اللغة بحيث «انَّه يستعير بعض مسلماته فيما يتصل بفهم اللغة–من حيث هي حدث اتصالي بالدرجة الأولى– ليطبقه على التراث. ويعني ذلك النظر إلى نصوص التراث بوصفها شكلاً من أشكال الاتصال، حسب النموذج البنيوي الذي يتقابل به (المؤلف، المقروء، والقارئ) تقابل (مرسل، الرسالة، ومستقبلها) في حدث اتصالي يقوم على حضور شفرة أو أكثر بين المرسل والمستقبل، على نحو تغدو معه قراءة النص عملية "فك" لدلالة ما .. »[22]. وانطلق الناقد بموجب هذا المنظور القرائي يتفحص البنية اللغوية لكتاب "البيان والتبيين" ويقلِّب في أغوارها قصد استقراء الحقائق، ودحض تلك الثوابت التي نسجها القرَّاء السابقون حول منهجية التأليف عند الجاحظ، والتي تشترك جميعاً في التأكيد على قصدية الاختيار المنهجي عنده.

يحسب للمسدِّي من خلال هذه القراءة قدرته على زعزعة الثوابت التي طال اعتناقها في أذهان النقَّاد والقرَّاء العرب على حدٍّ سواء، وتلك سمة القارئ الحداثي الذي يبني قراءته أساساً على مبدأ الشك المعرفي الذي لا يستسلم للحقائق الجاهزة، بل تراه يجهِّز نفسه بعُدَّة منهجية قصد الحفر

والتنقيب في المناطق المظلمة للخطاب النقدي مجسِّدا بذلك مبدأ التحرُّر من الفهم الذي تؤسسه المسبقات التراثية أو الرغبات الحاضرة، والتفرُّغ لمهمة واحدة هي استخلاص معنى النص من النص ذاته، وذلك من خلال العلاقات القائمة بين أجزائه. وبهذا يتم تحرير الذات من هيمنة النص التراثي، بإخضاعه لعملية تشريحية عميقة تحوله بالفعل إلى موضوع للذات وإلى مادة خصبة للقراءة[23]، ورغم ما لمنهج المسدِّي من مزية في دعم الوعي القرائي للمثقف العربي بتشجيعه على مراجعة الثوابت والتشكيك في مدى صحِّتها، إلاَّ أنَّه يعتريه بعض القصور في إقامة رؤية شمولية ومعَّمقة. وإذا كانت المقاربة النصَّانية قد أثبتت بعض العجز في مقاربة النصوص الإبداعية بسبب إغلاق النسق،فإنَّ الأمر يزداد تعقيدا أثناء تبني منطلقاتها المنهجية في دراسة النصوص النقدية المُثقلة بالمرجعيات الفكرية والاجتماعية...

وعلى هذا الأساس فإنَّ اقتصار قراءة المسدِّي هذه على تحليل البنية الداخلية للنص الجاحظي أوقعها في خلل، والكفيل بسدِّه هو إنزال النص الجاحظي–أثناء دراسته– في السياقات العامة التي أنتجته، ولهذا نجد جابر عصفور يحدد معالم المنهج المتميز في قراءة التراث النقدي وهو حسبه «يقوم على افتراض مؤداه أنَّ كلَّ نص من نصوص التراث النقدي لا يمكن أن نقرأه في عزلة عن غيره من النصوص، فالتراث النقدي وحدة سياقية واحدة داخل وحدة سياقية أوسع هي التراث كله، وإذا كان من الممكن أن نتحدث عن اتجاهات متميزة في التراث النقدي فإن هذه الاتجاهات لا يمكن فصلها عن الاتجاهات الأساسية في التراث من ناحية، ولا يمكن فصلها عن دلالاتها الاجتماعية أو صراعاتها الأيديولوجية من ناحية ثانية. بهذا المعنى تكون قراءة التراث النقدي بحثا عن "رؤيا عالم"

ينطقها النص المقروء و يشير إليها في صراعاته وتوازياته، ومن خلال علاقات التشابه التي تصله بغيره من النصوص، أو علاقات التضاد التي تضعه في تناقض مع غيره من النصوص»[24].

وما يقرُّ به جابر عصفور بشأن المنهج الأنسب لقراءة التراث، لا يختلف كثيرا عما يدعو إليه محمد عابد الجابري هذا الأخير الذي يُجمل قراءة التراث في ثلاث خطوات يكمِّل بعضها بعضا:

أ-**المعالجة البنيوية:** وفيها يتم الحرص على ربط أفكار صاحب النص بعضها ببعض والانتباه -قدر الإمكان- إلى طريقة -أو طرائق- التعبير لديه، و كذا استحضار مخاطبيه، و بذلك يتم محورة فكر صاحب النص حول إشكالية واضحة المعالم، وقادرة على استيعاب جميع التحوُّلات التي يتحرك في كنفها فكر صاحب النص.

ب-التحليل التاريخي: ويقوم بربط فكر صاحب النص الذي أعيد تنظيمه بمجاله التاريخي بكل ما يحويه من أبعاد ثقافية وأيديولوجية وسياسية واجتماعية. والبحث في هذا المعطى التاريخي لا يقصد من ورائه مجرد تحقيق الفهم التاريخي للفكر المدروس بل أيضا من أجل اختبار صحة النموذج البنيوي السابق. كما يجعلنا الإمكان التاريخي على بينة مما يمكن أن يتضمنه النص أو ما لا يمكن أن يتضمنه، وبذلك يتم التوصل إلى المسكوت عنه. بين ثنايا السطور.

ج-الطرح الأيديولوجي: لا بد من الاستعانة به لمساعدة التحليل التاريخي في الكشف عن الوظيفة الأيديولوجية (الاجتماعية، السياسية..) التي أداها الفكر المعني الذي ينتمي إليه النص. وفي هذا الطرح إذن يتم كشف النقاب عن الفترة التاريخية التي ينتسب إليها النص المدروس. وذلك حتى

نجعله معاصرا لنفسه مرتبطا أشد الارتباط بالعالم الذي لفظه، كما يضيف الجابري إلى هذه المعالجات المنهجية ضرورة فصل الذات عن الموضوع وفصل الموضوع عن الذات وذلك لتحقيق الموضوعية[25].

قد يُوافَق المسدِّي الرأي بخصوص افتقار الجاحظ لمنهجية علمية في التأليف، وهذا ما أقرَّه معظم النقَّاد الذين انشغلوا بالبحث في مؤلفات الجاحظ إذ أنَّه برز من خلالها أحد أقطاب الفكر الموسوعي الذي يحمل مقاصد شمولية إنسانية، ورغم ما يحمله موقف المسدِّي هذا من مصداقية إلاَّ أنَّه يحمل في ثناياه العديد من التجاوزات أهمها: وقوعه في مزالق الأحكام المعمّمة خصوصا أثناء حديثه عن مسألة الاستطراد عند الجاحظ إذ أصرّ على اعتبارها ظاهرة عفوية توحي بضعف التمكن المنهجي عند هذا الناقد، وإذا كانت معظم حالات الاستطراد تصب في هذا المجال إلاَّ أنَّ محمد الصغير بناني يؤكد أنَّه لا يمكن اعتبار جميع الاستطرادات خروجا عن الموضوع في فهم الجاحظ لأنه –وكما هو معلوم– ينص على وقوع الاستطراد كلَّما أدى به عامل ما إلى الخروج عن كلامه الأول، ولهذا يذهب إلى أنَّ جميع الاستطرادات التي لم ينص عليها الجاحظ يمكن أن يوجد لها جامع مشترك في السياق التأليفي عنده وهنا تلقى المسؤولية على عاتق القرَّاء لاكتشافها[26].

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأنَّ المسدِّي قد ضيَّق أو أغلق آفاق البحث أمام القراء للنبش في بعض الحالات الاستطرادية التي قد تخضع لسياقات معينة ظلت مغيَّبة عن ذهنهم رغم أهميتها في إضفاء نوع من القصدية عليها، هذا ما يعني أنَّ قضية الاستطراد عند الجاحظ يمكن أن تظل معيناً خصباً لكلِّ باحث قادر على الإحاطة بمكونات النص الجاحظي أولا، وبالظروف الفكرية والاجتماعية ... التي لفظته ثانيا. ومن النماذج

التي استخرجها محمد الصغير بنَّاني والتي يؤكد من خلالها إمكانية ورود القصدية في بعض استطرادات الجاحظ قوله «بعد الإعلان عن المنهج والغاية المنشودة نفاجأ باستطراد فالجاحظ يترك الكلام عن الشعوبية هذه المرة أيضا مفضلا البدء "بكلام رسول رب العالمين" هل هذا صراع مع المنهج وذبذبة كما يقول البعض؟ لا نظن ذلك لأننا –على الأقل في هذه المرة– تمكنَّا من مفاجأة الجاحظ حالة "تلبسه" بالاستطراد كما سنرى. والجاحظ في الحقيقة حتى هذه المرة، لم يدخل مباشرة في كلام الرسول إذ راح يمهد له بأخبار وأشعار تدور حول فكر التوسط في الأمور التوسط بين التقصير والتطويل، والتقليل والتكبير، والإيجاز والإسهاب ... ليصل صفحة(31) إلى خطب الرسول وخاصة خطبة الوداع التي نلتقي فيها بمفهوم " البيان" (اسمعوا أبيِّن لكم) وخاصة بمفهوم "البلاغة" الذي يرد ست مرات في وضعيته المشهورة: ألا هل بلغت ؟ يقول في سابعتها فليبلغ الشاهد الغائب: صفحة(33) التي تؤسس عالمية الرسالة الإسلامية و نستطيع أن نقول أيضا:عالمية البلاغة»[27].

بعد ذلك يورد الجاحظ أحاديث عديدة يحثُّ أحدها على تقييد العلم بالكتاب. ويعلق الجاحظ عليه بقوله: «إنَّما مدار الأمور والغاية التي يجري إليها الفهم ثم الإفهام والطلب ثم التثبت»[28]، ويعقِّب بنَّاني على هذا التوضيح قائلا «لا نستبعد أن يكون الجاحظ راح يردُّ على الازدراء بمثله فيعلق الكلام عنهم المرة بعد الأخرى مفضلا ما هو أولى وواجب. يعني كلام رسول رب العالمين والسلف المتقدمين فهو حينئذ تأجيل مقصود ويدخل في نطاق الصراع الثقافي القائم بينه وبين الشعوبية، وعليه فهل من حقِّنا اليوم أن نلومه على تكييف منهجه حسب ما تقتضيه ظروفه

الثقافية الخاصة؟، وهل مناهجنا العلمية اليوم غير خاضعة هي الأخرى إلى مثل هذه الضغوط»[29].

ولما يشرف كتاب "البيان والتبيين" على النهاية يطفو فجأة"محور الشعر" ويستأثر بالسياق[30]، حتى يوهم القارئ أنَّ الجاحظ قد تخلص من مشروعه الأول. إلاَّ أنَّ التحلي بقليل من التمعُّن يجعلنا نستنتج أنَّ هذا الكتاب إنَّما وضع للدفاع عن قضية الإعجاز. وقد انتقل في آخر لحظة إلى موضوع الشعر لأنَّ هذا الأخير يحمل نوعا من الوحي وضربا من الإعجاز[31].

وعليه فإن كانت أغلب حالات الوقوع في الاستطراد عند الجاحظ نتيجة لضعف التحكم المنهجي، فإنَّ قيام أي مبرر معرفي أو منهجي أو حضاري... لظاهرة استطرادية ما يفرض ضرورة تقديم قراءة لها من خلال استيعاب المعطيات المقروءة تحليلا وتفسيرا وتقييما. هذا بدل الجزم المطلق بعفوية التأليف عند الجاحظ، ورغم إشارة المسدِّي إلى دافع تأليف الكتاب –وهو الرد على الشعوبية– إلاَّ أنَّه لم يستثمر هذا المعطى في محاولة النبش والتنقيب أو تقديم رؤى قرائية جديدة من شأنها أن تزيح الكثير من الغموض الذي أحاط بظروف تأليف كتاب"البيان والتبيين" .

وإضافة إلى ما سبق فقد علق المسدِّي على الجاحظ حين وضَّح مبتغاه من منهج المزج بين الجد والهزل وهو التفريج عن كدِّ العلل والاحتجاجات بالبراهين والاستدلالات بأنَّه مجرد إيهام للقارئ يستوي فيه عناء اللاحق بكدِّ السابق[32]. إذا كان الجاحظ قد فشل حقيقة في إحكام منهجه القائم على المزج بين الجد والهزل في بعض نصوصه –التي حرص المسدِّي على انتقائها–، فإن ذلك ليس مبرراً كافيا لاختصار هذا

المسلك التأليفي في مجرد المراوغة و الخداع وإيهام القارئ، لأنَّ إثبات هذه الأحكام يقتضي استقراءً دقيقاً ومعمقاً لمختلف نصوص الجاحظ التي تصب في هذا النمط من التأليف، والواردة في مختلف مؤلفاته –خاصة وأنَّ الفكر متكامل لا يقبل التجزيء–، لهذا تحسن الإشارة إلى أنَّ الجاحظ لم يقصر استعماله لهذا النمط من التأليف في كتابه "البيان والتبيين" فحسب، بل يُشهد له أيضا بأنَّه من النقَّاد العرب القلائل الذين ساهموا في اكتمال الشكل الفني "للسخرية" والتي أفرد لها كتاباً هاماً كان ملؤه التمثيل المسرحي الهازل، واللوحات التصويرية النادرة هو"البخلاء". كما أنَّ عقل الجاحظ المعتزلي الفذ جعله يميل إلى روح الدعابة والسخرية التي يستبطن من خلالها مختلف المشاعر والظواهر والأفكار. هذا ما جعله يخصص عملاً واسعاً لتتبع بعض خصائص المسرح الضاحك وهو رسالة "التربيع والتدوير"، مازجاً في وصف شخصيته بين عقل الفيلسوف وروح الأديب، وقد برع في نسج صور من التحليل النفسي –القائم على دقة الملاحظة ونفاذ البصيرة وعمق التجربة– والذي لم تمكن الغاية منه مجرد التجريح والإيجاع بل كان يصبو من خلال ذلك إلى تقويم السلوك ودفع الملل عن النفوس[33].

كما يُفسِّر رابح العوبي هذا المنحى التأليفي الذي اشتهر به الجاحظ على أنَّه اهتمام بالقارئ «وهذا الاهتمام الذي جعله يسلك سبيل التشويق والتنشيط في أسلوبه الفني، أدى به إلى أن يريحه باستراحات قصيرة أو طويلة، في شتَّى المنعطفات، كأن يتحفه بدعابة أو شعر أو بخبر أو بفكرة كلامية أو بآيات قرآنية وأحاديث نبوية، أو بفكرة علمية ... وما إلى ذلك من المعارف التي لا تحصى مع التنقل في كل الموضوعات المتصلة

بالإنسان أو الحيوان أو النبات ومن شأن هذا أن يحقق للقارئ ناحيتين هامتين وهما:

1- الناحية الترفيهية.
2- الناحية التعليمية»[34].

وبهذا اقتصر المسدِّي على بعض النماذج الواردة في كتابي "البيان والتبيين" و"الحيوان"، والتي عجز فيها الجاحظ عن إقامة مواءمة فعلية بن الجدِّ والهزل مما أثّر على منهجه، وغض بصره عن كتابي: "البخلاء" ورسالة "التربيع والتدوير" رغم أنهما يمثلان نموذجا واضحا يثبت تبني الجاحظ لأسلوب المزج بين الجدِّ والهزل منهجا في التأليف وذلك بأن «يدع القصص والحكايات تتكلم**** مستخدماً في ذلك كلَّ الحيل السردية مع الاستعانة بالسخرية كأداة ناقدة وفعَّالة، وهذا ما يغلِّب جانب الهامش، إذ أنَّ الهامشي هو الأقرب للسردية الساخرة، مما ينشأ عنه نوع من التعاطف القرائي ويميل القرَّاء إليه لإمتاعيته، وتتحول شخوص الحكايات إلى صور حيَّة ومألوفة ومحببة، فيتعاطف معها القارئ وبهذا ينتهي الخطاب مع القارئ ليكون خطاباً مضاداً ومعارضاً وخطاباً نقدياً ساخراً»[35]. لهذا كان بإمكان المسدِّي أن يترك المجال مفتوحاً أمام البحث العلمي الجاد القادر على تجاوز المصادرات الجاهزة والتخلص من سطوة الأحكام العامة، إضافة إلى النبش في مختلف الظواهر التأليفية عند الجاحظ مع الانفتاح على السياقات الفكرية والثقافية والاجتماعية التي ساهمت في صناعتها. كلّ ذلك حتى نتمكن من فصل الظواهر التأليفية العفوية عن المقصودة مع تقديم مبررات لكلٍّ منهما، وهذا كفيل بأن ينزِّل الجاحظ منزلته المنوط بها في تراثنا البلاغي، وأن يزيح الكثير من الضبابية التي تخيِّم على ذهن القارئ العربي.

الهوامش:

* وتعود أصول هذه الدراسة إلى بحث أنجزه المسدِّي في قسم الدراسات الأدبية من مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية التابع للجامعة التونسية سنة 1974. بعنوان "المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي" من خلال "البيان والتبيين". وقد نشره في حوليّات الجامعة التونسية (العدد الثالث عشر، 1976)، مضمناً إيَّاه ثبتاً عامًّا لتواتر أربعة مصطلحات هي البلاغة والإبلاغ والفصاحة والإفصاح كما جاءت في سياقاتها من "البيان والتبيين"، ثم نشرته مجلّة الأقلام العراقية في عددها الخاص بالنقد الأدبي (أوت 1980) دون إدراج للملحق المصطلحي. ليعيد بعد ذلك المسدِّي صياغة هذه الدراسة في حلّة جديدة وذلك في كتابه: "قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون" إذ وسَّع النظر في قضية المنهج التصنيفي عبد الجاحظ كما عمَّق البعد النقدي الثاوي وراءه. ووضح ذلك بإيراد شواهد عدَّة لتوضيح رؤيته المعرفية وتخلّى بذلك عن الثبت المصطلحي والرسوم البيانية وبعض الإحالات والهوامش، (ينظر: عبد السلام المسدِّي: قراءات مع الشّابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط2، 1984، ص ص 8-9

[1] خالد حسين حسين: "اللغة-الكتابة وإستراتيجية العنونة"، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق / سورية، ع428، السنة 35، كانون الأول2006، ص97.

[2] عبد السلام المسدِّي:قراءات مع الشابي و المتنبي والجاحظ وابن خلدون، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط2، 1884، ص ص101-102

** من هؤلاء: المسعودي: - مروج الذهب (ج4- ص47)
- ابن رشيق: العمدة(ج1-ص227)
- مصطفي الشكعة: "مناهج التأليف عن العلماء العرب: ص173-174د
- عبد العزيز عتيق: تاريخ البلاغة العربية، ص53
كما لم يشذ المستشرق شارل بالاً عن هذه النظرية. انظر فصله دائرة المعارف الإسلامية (اللسان العربي)، الطبعة الجديدة،(المجلد2-ص397) (ينظر: عبد السلام المسدِّي: قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص102).

[3] المصدر نفسه، ص102.

[4] المصدر نفسه، ص102-103.

[5] جابر عصفور: قراءة التراث النقدي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط1، 1994 ص9.

*** الجاحظ أبو عثمان: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت/لبنان، ط2، د-ت، ج1، ص 210.

[6] عبد اللسلام المسدِّي: قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص103.

[7] محمد الصغير بنّاني: النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ (من خلال البيان والتبيين)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1994، ص243.
[8] محمد الدغموغي: نقد النقد وتنظير النقد العربي المعاصر، منشورات كلية الآداب، الرباط/ المغرب، ط1، 1999، ص76.
[9] عبد السلام المسدِّي: قراءات الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص105.
[10] المصدر نفسه، ص110.
[11] الجاحظ أبو عثمان: البيان والتبيين، ج1، ص306.
[12] عبد السلام المسدِّي: قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص ص 111-112.
[13] عبد الله الغذامي: النقد الثقافي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية)، المركز الثقافي العربي، بيروت /لبنان، الدار البيضاء/ المغرب، ط2، 2001، ص224.
[14] المرجع نفسه، ص-ن.
[15] المرجع نفسه، ص 225.
[16] الجاحظ أبو عثمان: البيان والتبيين، ج2، ص222.
[17] عبد السلام المسدِّي : قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص113.
[18] المصدر نفسه، ص114.
[19] عبد الله الغذّامي: النقد الثقافي، ص ص 225-226.
[20] المرجع نفسه، ص 240.
[21] عبد السلام المسدِّي: قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص8
[22] جابر عصفور: قراءة التراث النقدي، ص41.
[23] محمد عابد الجابري: نحن والتراث (قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ المغرب، بيروت/ لبنان، ط6، 1993، ص23.
[24] جابر عصفور: قراءة التراث النقدي، ص10
[25] محمد عابد الجابري: نحن والتراث، ص24.
[26] محمد الصغير بنّاني: النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ (من خلال البيان والتبيين)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،د- ط،1994 ، ص46.
[27] المرجع نفسه، ص ص 57-58.
[28] الجاحظ أبو عثمان :البيان والتبيين ج2، ص39.
[29] محمد الصغير بناني: النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، ص60.
[30] ينظر، الجاحظ أبو عثمان : البيان والتبيين ج4، ص34.
[31] محمد الصغير بناني: النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، ص61.
[32] عبد السلام المسدِّي: قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص ص 115-116.

[33] السيد عبد الحليم محمد حسين: السخرية في أدب الجاحظ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا، ط1، 1988، ص ص 239-240.
[34] رابح العوبي:فن السخرية في أدب الجاحظ من خلال كتاب "الترويع والتنوير" "البخلاء"، الحيوان ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط1، 1989 ص 414.
[35] عبد الله الغذامي: النقد الثقافي، ص 241.